موقف المؤرّخ من قضايا الساعة واستشراف المستقبل

أ.د. إبراهيم القادري بوتشيش (*)

مقدمة

تعالج هذه الورقة البحثية موقف المؤرّخ من القضايا الراهنة التي تشغل بال الرأي العام، وتحلّل الدواعي التي تفرض عليه فحص ملفات التاريخ الحاضر، وتختبر مدى إمكانية توقعاته للتحوّلات الممكنة الحدوث في المستقبل، انطلاقاً من خبرته ومعارفه التاريخية، على الرغم من انغماسه في رصد أحداث الماضي.

لتمحيص هذه الفرضيات، والإجابة عن التساؤلات ذات الصلة، تمّ تناول الموضوع من خلال ثلاث مقاربات: أكاديمية وأخلاقية وتراثية. سعت هذه المقاربات الثلاث، إلى الترافع حول مبدأ عدم انزواء المؤرّخ، وعدم اكتفائه بدراسة الماضي فحسب، وضرورة إبحاره بين الماضي والحاضر بكل تعقيداته والتباساته، ليندمج في القضايا الراهنة، ويفسّر مشاكل المجتمعات بالرجوع إلى أصولها وجذورها التاريخية.

من الخلاصات الأساسية التي توصلت

إليها الدراسة، أن مهمة المؤرّخ مزدوجة، فإلى جانب شقّها الأكاديمي، فهي أيضاً معركة قيم، تسعى إلى البحث عن الحقيقة والحق والعدل، ومناهضة كافة أشكال الفساد والاستبداد، والبحث عن عوائق نهضة المجتمعات، وترسيخ المبادئ الأخلاقية. ومثل هذه الالتزامات الأخلاقية ترفع من منسوب مصداقية المؤرّخ، وتجعله ينتقل من موقع المؤرّخ المتفرج على الأحداث عن بُعد، إلى فاعل ومتفاعل مع قضايا مجتمعه، فيكون بذلك قد احترم مهنته كمؤرّخ.

الكلمات المفتاحية: المؤرّخ، الحاضر، المستقبل، استشراف، الأخلاق.

مدخل حول سؤال ترابط الأزمنة

تنطلق هذه الورقة البحثية من أسئلة تُشكل قلب الإشكاليات التي تُثار في نقاشات المؤرّخين على الشكل التالي: هل المؤرّخ هو ذلك المثقف المولع بالنبش في خبايا ملفات الماضي، والالتفات دائماً إلى

(*) أستاذ فخري بجامعة مولاي إسماعيل بكناس / المغرب.

الوراء، من دون أن تمتد مساحة اهتماماته نحو قضايا الساعة التي يعايشها في التاريخ الراهن؟ أو ليس من حقّه أيضاً أن يرمي ببصره نحو الأمام ليكون له إسهام في التنبؤ بالتحوّلات الممكنة على المستويين الوطني والدولي في المدى المتوسط والبعيد؟ وهل تقتصر أوراش اشتغاله على الأموات دون الأحياء؟ وهل هو مجبر على الانسلاخ عن عالم يعيش تحت شمس، ويكتفي بالزجّ بنفسه في دهاليز الماضي؟ أم أن من حقّه - بل من واجبه ومسؤولياته - أن يتفاعل مع حاضره، ويُقلّب الأوراق، ويفتح ملفات اللحظة الراهنة، ويكون فاعلاً ومتفاعلاً مع الأحداث التي تجري تحت سمعه وبصره، حتّى يستفيد المجتمع من خبراته التحليلية، ويكون مؤهلاً لاستشراف تحديات المستقبل، فيصير صوته مسموعاً ومؤثراً في القضايا التي تشغل بال الرأي العام؟

إن السؤال المثار في هذا المقام، يتموقع بين مفهومين أعطيا للتاريخ، تفصل بينهما مسافة زمنية عرف فيها علم التاريخ تطوراً نوعياً، بل وحتّى مفاهيمياً.

يتبدّى المفهوم الأول في مرجعية المدرسة الوضعانية التي عرفت إشعاعاً معرفياً كبيراً خلال القرن التاسع عشر، والعقود الأولى من القرن الذي يليه. وسارت على هدي التوجهات التي صاغتها مجموعة من المؤرّخين الألمان، يعتلي لائحتهم ليوبولد رنكة (1796 - 1886م) مؤسس المدرسة

الألمانية، بالإضافة إلى كوكبة من المؤرّخين الفرنسيين من طينة ج. مونود G. Monod وشارل لانجوا Ch. Langlois وشارل سينيوبوس Ch. Seignobos. وتُوجّ منظور هذه المدرسة بصدور كتاب "المدخل للدراسات التاريخية" الذي حرّره المؤرّخان الأخيران عام 1898م، ليكون بمثابة "دليل" ومرشد لجيل مؤرّخي تلك الحقبة⁽¹⁾.

تبنت المدرسة الوضعانية المتأثرة بثورة العلوم الطبيعية آنذاك، منظوراً يقوم على فكرة قدرة العقل البشري تجريد نفسه من كافة الأحكام والتصورات القبلية، ليتحول إلى عقل مطلق بكامل الموضوعية، وأن الماضي يعالج بالماضي، بعيداً عن قضايا الحاضر. ومن هذا التقعيد الذي أسست عليه مقاربتها المنهجية، تكون قد سيّجت مهمة المؤرّخ بسياج سميك، يجعلها تنحصر في معرفة الماضي، وإحيائه بالنصوص والوثائق المكتوبة على الخصوص، مع ترك مسافة بين المؤرّخ والمادة التاريخية التي يعالجها، والاحتكام إلى ما تبوح به الوثائق، من دون أي تدخل من جانبه. كما حرصت على أن يبقى موقف المؤرّخ متوارياً خلف وثنائه، تحت مبرر الوقوع في شرك الذاتية والانحياز واستبداد الأهواء⁽²⁾.

أما المفهوم الثاني الذي تبنته مدرسة الحوليات تحت ريادة «مارك بلوك» M. Bloch و«لوسيان فيفر» L. Febvre

وأقطاب التاريخ الجديد بقيادة "جاك لوجوف" J. Legoff، فينزح نحو منظور شمولي يجعل من التاريخ علماً للتغيير، وقراءة متجددة للإنسان في الزمن، وطموحاً لاستشراف مستقبل التاريخ البشري، بقراءة واعية للماضي، وصلته بالحاضر، مع استخدام مكثف للعلوم الاجتماعية والإنسانية، كالأثروبولوجيا والسوسولوجيا واللسانيات وعلم الدلالات (السيمياثيات)، والعلوم السياسية والقانونية والطوبونيميا Toponymie، وغيرها من العلوم التي تجعل الكتابة التاريخية تستوي على سوقها. ناهيك عن الحاجة إلى اعتماد كافة أصناف الوثائق والنصوص والشواهد، مكتوبة أو صوتية، مادية أو لا مادية، حقيقية أو مجازية أو متخيَّلة، ثم العمل وفق منهج علمي لا يفصل البشر الأحياء عن الأموات، ودراسة البنيات الثابتة والمتغيرة وذهنيات المجتمعات، لتحليل وفهم الحاضر، واستشراف المستقبل^(٣).

يُحيل مفهوم التغيير وفق هذا المنظور التاريخي على دلالات التحول الذي يطرأ على الأفكار في الأزمنة والحقب والبُنى، وعلى تغيّر الذهنيات في المجتمعات، والتبدل في القيم، والتحويلات المفصلية التي تحفر مجاري جديدة في تاريخ البشرية، مما يجعل من التاريخ علماً خادماً لفهم حاجات المجتمع، ومفسراً لممكنات

التحويلات المستقبلية لتاريخ الإنسان في الزمان والمكان.

وفقاً للمفهوم الثاني الذي يميل إليه الباحث، تتحول هندسة مفهوم التاريخ في أبعاده الزمنية، فينتقل من البُعد الزمني الاستردادي الموجه نحو الكشف عن الماضي، إلى وحدة زمنية ذات أبعاد ثلاثية مركبة من الماضي والحاضر والمستقبل. إنه بتعبير آخر جُمع وتوليف بين الإنسان المعاصر الذي يعيش علاقة وجودية مع ذاكرته، ومع ذات تحتاج للتاريخ لتصارع به تحديات الزمن الراهن من جهة، والزمن "المتوقع" من جهةٍ أخرى، فيصير التاريخ في هذه الحالة مَعْبَرًا عن حاجة معرفية ضرورية، واستثماراً ثقافياً وذهنياً لا يقتصر على دراسة الماضي فحسب، بل يفتح أيضاً ملفات أخرى لخدمة الحاضر واستشراف آفاق المستقبل. ويتماهى هذا القول مع القاعدة القائلة إن المؤرِّخ لا يستطيع فهم وإدراك الماضي بالماضي فحسب، ولا الحاضر بالحاضر، ولا المستقبل بالمستقبل، بل يتم فهم الماضي والحاضر والمستقبل عبر ترابط الأزمنة المتواشجة^(٤) التي تؤسس وحدة زمنية متكاملة غير قابلة للتجزئ والتشظي.

بهذا المفهوم المركب، الذي يخلق تجسيراً زمنياً بين الماضي والحاضر والمستقبل، يتحول التاريخ من مجرد سرد لأحداث ماضية، إلى مجال حيوي يهتم به الرأي العام، لا بوصفه

الراهن أو التاريخ الفوري L'histoire immediate الذي يعد مفتاحاً لفهم أعمق للماضي، وبناء خطاطات أولية لاستشراف المستقبل.

تأسيساً على ما سلف ذكره حول الحاجة إلى مؤرّخ لا يشيح بوجهه عن الحاضر، ويراقب الأحداث ويتبعها عن قرب، ويُساهم في تقييمها والتفاعل معها لاستبصار أو توقع أحداث المستقبل، سنحاول متابعة هذه الإشكالية وتفكيكها من خلال ثلاث مستويات:

أولاً: على مستوى المقاربة الأكاديمية:

الحاجة لمؤرّخ التاريخ الحاضر

لا يجد الفاحص للكتابات التاريخية العربية المعاصرة عناء في الكشف عن أن معظم المؤرّخين العرب لا يزالون يتدثرون بعباءة الماضي، ويشيحون بوجههم عن قضايا الساعة، فبالأحرى استبصار المستقبل. وعلى عكس هذا التوجه، يُلاحظ أن المؤرّخين الغربيين وعوا منذ عقود بأهمية التاريخ الحاضر، وبمركزية دور المؤرّخ في إسماع صوته للرأي العام، والتفاعل مع قضايا الحاضر، والمشاركة أحياناً في صنع القرار السياسي للدولة، والإسهام كخبير تُنصت السلطة والمجتمع السياسي والمدني لأفكاره وتحليلاته للحاضر والمستقبل، مما جعل الجميع يقرأ كتبه التي يستقضي فيها مشاكل بلده، ومشاكل العالم المُستعصية، ويناقشها في هدوء وتؤدة، بالرجوع إلى

تأصيلاً لهوية شعب أو أمة فحسب، بل بوصفه أيضاً قاطرة للتنمية الثقافية، وقوة ناعمة لتطوير عقلية المجتمع، وتنمية القدرات الفكرية للإنسان. ويصبح المؤرّخ - بهذه الصفة - مساهماً في مسيرة التنمية الثقافية، ويحظى بتقدير الدولة والمجتمع؛ لأنه لا يكتفي بإدارة رأسه إلى الوراء، بل ينزل إلى معترك الحاضر والمستقبل، ليحلّل ويُبدلي بآرائه انطلاقة من رصيده المعرفي التاريخي، وبعمله الميداني المباشر، ومعرفته ببنيات المجتمع ومؤسساته، واستيعابه لطرق تدبير العقل الإنساني للأزمات عبر الزمن التاريخي الطويل.

الراجح أن هذا التحول الإيستيمولوجي على مستوى التشبيك والتداخل الزمني بين الماضي والحاضر والمستقبل، كان من أهم عوامل ومبررات ظهور ما بات يُعرف حالياً بتاريخ الزمن الراهن أو الحاضر L'histoire du temps présent، وهو من التحقيقات الجديدة التي فرضت نفسها في حقل البحث التاريخي، بعد أن ظلّ المؤرّخون يزأرون عنه ردحاً من الزمن، نتيجة عوامل سنحللها في ثنايا هذا البحث.

إن تاريخ الزمن الحاضر هو لحظة تاريخية يُعايشها المؤرّخ، ويتفاعل مع أحداثها، لذلك يُسميها البعض بالتاريخ الآني، أو التاريخ الجاري كما يطلق عليها البعض اسم التاريخ القريب أو التاريخ

جذورها التاريخية، وتطورها عبر الزمن.

بيد أن من الإنصاف القول إن العقلية الأوروبية نفسها تمتعت إلى زمن قريب عن قبول فكرة تجاوز المؤرخ حاجز الماضي أو مناقشة قضايا الساعة. وفي هذا السياق، يُفهم انتقاد المؤرخ الفرنسي، والأب الروحي لمدرسة الحوليات «مارك بلوك» لأحد أساتذته الذي كان يُدير ظهره لكل ما له صلة بالتاريخ الحاضر، ويعيب على بعض طلبته دراسة مواضيع تنتمي زمنياً للمرحلة الراهنة، تحت حجة أن هذا التاريخ تاريخ «معاصر جداً»، يدنس عقّة التاريخ بسبب المجادلات والاختلافات والمواقف الذاتية التي يفرضها الحاضر، والارتجاعات العاطفية التي تستبد بالمؤرخ وهو يكتب عن الحقبة التي يعيش فيها. بيد أن هذه الاعتراضات لم تُقنع التلميذ والمؤرخ المساعد آنذاك «مارك بلوك» الذي دافع بحرارة عن مهنة المؤرخ، وحاجة المجتمع في الإنصات إليه في القضايا الراهنة، والاستفادة من تحليل وتفسير معضلاتها^(٥).

لقد انتصر توجه «مارك بلوك»، وأصبحت كتابات المؤرخ الأوروبي في فضاء التاريخ الراهن تلقى آذاناً صاغية، وتصل إلى المتلقي عبر مختلف الوسائل، لتتحول إلى نقاشاتٍ ساخنة حول قضايا الساعة، من قبيل تحليل الأزمات الاقتصادية، وتفسير مشاكل الهجرة وممكنات حلّها، وقضايا

البيئة والتغيرات المناخية، وتطور الأحزاب السياسية، والانتخابات، وأسباب الحروب والصراعات السائدة في عالم اليوم، وغيرها من القضايا الساخنة التي تشغل بال الرأي العام. ويمكن في هذا السياق استحضار نموذج البرنامج الإذاعي الفرنسي «تاريخ الإثنين» Les Lundi de l'histoire الذي كان يُذاع كل يوم اثنين في راديو فرنسا، بمساهمة مؤرخين فرنسيين كبار، وعلى رأسهم «جاك لوجوف» لمناقشة أعمال المؤرخين، أو تقديم مؤلفاتهم، والمشاركة في طاولات النقاش والحوار حول القضايا الراهنة، وتقديم قراءاتهم وتصوراتهم وإضاءاتهم، والإنصات لأرائهم من زاوية تاريخية، من خلال التعليق بشكل منتظم على الأخبار السياسية والمحلية والدولية، وغيرها من قضايا الساعة^(٦).

بل إن خبرة المؤرخ في الغرب، وقدرته على تحديد الجذور التاريخية للقضايا المتنازع حولها، جعلته طرفاً أساسياً يُستدعى لقاعات المحاكم، ليبدل بآرائه المدعّمة بالوقائع والاستشهادات التاريخية. كما أصبحت الخبرة التاريخية L'expertise historique اليوم تحت الطلب، بل أحياناً تكون حاسمة في النزاعات، ومؤثرة في الرأي العام^(٧).

لذلك أحسب أن حاجة المجتمع إلى مؤرخ الزمن الآني، ودخوله في قلب نقاشات القضايا التي تشغل بال الرأي

العام، أصبحت كحاجة الإنسان للهواء. بل نميل إلى الظن إن أسهم المؤرّخ في هذه الحالة التي تستوجب حضوره تكون مرتفعة، وتزداد قيمته الوظيفية، باعتباره شاهد عيان على أحداث العصر، وله من القدرات ما يجعله يقرأ الحاضر بخلفية تاريخية. ولا شك أن وجود أصناف من المصادر والوثائق المباشرة طوع يديه، فضلاً عن وفرتها وغناها، ما يجعله متمكناً من استبصار الخطوط الأولية لتوقعات المستقبل، من خلال معطيات الماضي والحاضر، فيساهم برصيد العبر والدروس التاريخية في إبداع بعض الأفكار التي تكفل للمجتمع تبني الاختيارات الصحيحة، فيكون شريكاً في تنميته، والنظر في مخططاته، وتحديد أفضل الاستراتيجيات لتطويره. أين يتجلى قصوره إذن؟ وكيف يمكن تجاوزه؟.

لا شك أن أحداثاً كثيرة تمر أمام المؤرّخ في تاريخ الزمن الراهن، تتسارع عقاربها أمام أعينه عبر وسائل الإعلام التقليدية، أو من خلال الوسائط المعلوماتية والذكاء الاصطناعي والتكنولوجيات الحديثة، ومنصات التواصل الاجتماعي؛ تُشير فيه غريزة المتابعة والمشاهدة، تولد لديه التساؤلات الحارقة، والهواجس المعرفية الشائكة، وتقدم له «مادة تاريخية» طرية فائرة. بيد أنه لا يستنهض قلمه لتدوينها وتحليلها، تاركاً الفضاء مفتوحاً لأقلام

الصحفيين والباحثين في العلوم السياسية، والنشطاء الحقوقيين وصناع المحتوى، والمؤثرين الذين يسجلون «أحداث الساعة» عن كثب، ويُدلون بأرائهم، فيما المؤرّخ غائب عن ساحة النقاش، لا يتحرك سوى نحو الماضي، ويلوذ بالصمت التام تجاه ما يمور به مجتمعه من أحداث وتحوّلات في الحاضر.

ويغلب على الظن أن مثل هذا الحضور للمؤرّخ في قلب الأحداث التاريخية، يزيد من رفع قيمة تحليله المباشر للوقائع، والتفاعل معها، والمشاركة في تحديد الاختيارات الصائبة. ولعلّ هذا ما يدكرنا بدور المؤرّخ الفرنسي «مارك بلوك» السالف الذكر، الذي ساهم في الحرب العالمية الثانية محارباً ضد ألمانيا النازية، وخلاها ألف كتابه الشهير «الهزيمة الغربية» *L'étrange défaite*^(٨). ففي هذا الكتاب، لم يكتفِ «مارك بلوك» بالإمسك بالقلم والأوراق والتحليل بعيداً عن ميدان الحدث، بل تفاعل مع مجتمعه وقضية بلده التحريرية، فارتدى بذلته العسكرية بوصفه ضابطاً في الجيش الفرنسي، ودلف إلى ساحة الحرب كمشارك وفاعل مباشر، ومكلف بتزويد عربات الجنود بالبنزين. وفي هذه المعركة الطاحنة، لاحظ بعين المؤرّخ الدقيقة كيف تمكّن جيش هتلر من اجتياح بلجيكا، واحتلال الأراضي الفرنسية، بسبب الفوضى والارتباك في صفوف

الجيش الفرنسي الذي أرغم على التراجع والانسحاب من دون هدف مسطر أو خطة محكمة ومدروسة.

كان هذا المشهد الانهزامي والاضطراب الذي عمّ القيادة العسكرية والضباط الفرنسيين، وراء تحفيز المؤرّخ الفرنسي على تفسير أسباب الهزيمة الفرنسية الماحقة لحظة بلحظة، ليستشف أنها لم تكن هزيمة عسكرية، بل هزيمة فكرية، بسبب الإستراتيجية العسكرية الفرنسية التي كانت لا تزال آنذاك تشرب من الفكر العسكري السائد في الحرب العالمية الأولى، في الوقت الذي تأسست الإستراتيجية العسكرية الألمانية على تجديد آليات التسليح والتخطيط، ومواكبة التطورات المادية والميدانية التي حدثت خلال فترة ما بين الحربين.

ورغم تشكك بعض المفكرين من طينة "ديكارت" و "بول فاليري"⁽⁹⁾ في أهمية التاريخ، والزعم بعدم جدواه في الحاضر، فإن منطق التفكير يجعلنا مقتنعين أنه الحقل المعرفي الذي لا تتوقف الحاجة إليه لثلاثة أسباب على الأقل:

إن الوعي بالزمن الراهن يعني الوعي بالماضي والمستقبل، وعدم فهم الحاضر يتولّد عن الجهل بالماضي، وكلّ من يريد أن يمسك بالحاضر من خلال ما هو راهن، فلن يفهم ما هو راهن. وهذا ما يعكسه قول "جاك لوجوف": "لا يقتصر الجهل بالماضي

على الإضرار بمعرفة الحاضر فحسب، بل يفسد العمل ذاته في الحاضر"⁽¹⁰⁾. والمؤرّخ الناجح في تقديره هو الذي يعرف كيف يحول واقعه المعاش (الحاضر)، إلى أداة للتفكير التاريخي، مما يؤكد جدلية الماضي والحاضر.

بحكم أن الموضوع الجوهري للتاريخ هو الإنسان، فالنقطة المشتركة بين الأحياء كرمز دال على للحاضر، والأموات كرمز للماضي، هو تجسيدهم معاً لنوعية الكائن الإنساني الذي يُعدّ الفاعل الرئيسي في عملية استمرار الحياة والتطور البشري، وتعاقب الحضارات، فإنسان الأمس هو نفس إنسان اليوم شعوراً وإحساساً وعاطفة ورغبة، ولا يميز بينهما سوى تغير الظرفيات التاريخية، وتبدل وسائل العيش، والتطورات التكنولوجية التي خلفت تغيرات في السلوكات، في حين أن الجوهر البشري لم يتغير.

يعد مبدأ الإنسانية رابطاً أساسياً بين العالم الماضي والعالم الحاضر وعالم المستقبل، فلا حياة ولا استمرارية بدون مبدأ الإنسانية الذي كان موجوداً في الزمن الغابر، كما هو موجود في الزمن الراهن أو المستقبل، وهو ما يؤكد انعدام القطيعة بين الأزمنة الثلاث.

ولعلّ ما يزيد من مشروعية انشداد المؤرّخ للتاريخ الحاضر، أن منسوب وعي المجتمعات تجاه التاريخ، ودور المؤرّخ في تحليل المجتمع الراهن، والعلاقات بين أفراد

المُجتمعات، قد ارتفع نسبياً. كما ساهمت الطفرة التكنولوجية والثورة الرقمية في انفتاحها من أجل التعبير عن نفسها أكثر مما كان في الماضي، حيث كانت وسائل الإعلام الرسمية متسيّدة، وجرائد المعارضة محاصرة، بل وحتىّ مصادرة، والمعلومات محتكرة من قبل النخبة الحاكمة. والحال أن صوت الرأي العام الذي يحتاجه المؤرّخ، والذي ظلّ مكبلاً ردهاً طويلاً من الزمن، فكّ نسبياً من أغلاله اليوم، واصبح في صالح المؤرّخ، وغداً المجتمع طرفاً أساسياً من الأطراف التي يجاورها ويقنعها، بعد أن كان حواراً يقتصر على فئات من الناس الذين عاشوا في غياهب الماضي.

ويترتب عن تحول المؤرّخ إلى دور المُستبصر للمستقبل، أن يصبح خبرة مطلوبة، وذاتاً مفكرة، تُبحر بين عوالم الماضي والحاضر والمستقبل، تتفاعل مع أحداث الحاضر، لتتابع وتحلّل وتفسّر، بهدف إبداع مؤسس على قواعد ومنظومات محددة في الزمن الحاضر والزمن الآتي الذي يجيء عدداً من التطورات السياسية والاقتصادية، وتقديم السيناريوهات المحتملة، وهو ما دعونا إليه أيضاً في إحدى دراساتنا السابقة^(١١).

طبعاً، لا أقصد في هذا المقام تسرّع المؤرّخ في تحليله للأحداث، وانقياده لمعطيات اللحظة التي يعيشها، بل أقصد مشاركته في التفاعل مع أحداث الساعة،

والتأني والتروي والانضباط، ومحاولة التشخيص والتعقل القادر على تفكيك الحدث، وفحص مكوناته، وتحديد السياقات المؤطرة له، والتعلق بكل آليات الفهم، لفرز الأصوب منها، وتركيب بناء مقبول في تفسير وقائع الحاضر واستقراء توقعات المستقبل.

ثانياً: على مستوى أخلاقية مهنة المؤرّخ:

البحث عن الحقيقة والدفاع عن الحق يذهب المؤرّخ «مارك بلوك» في كتابه «دفاعاً عن التاريخ» إلى أن التاريخ ليس إشكالية فكرية وعلمية فحسب، بل هو أيضاً قضية تكتسي بُعداً أخلاقياً^(١٢)، ومن ثمّ تبدأ مسؤولية المؤرّخ المعرفية المتماهية مع قضايا مجتمعه في الحاضر كما في الماضي، لتجعل منه كائناً مدنياً متفاعلاً، ومؤرّخاً ملتزماً بالدفاع عن الحقّ وعن القيم.

فالمؤرّخ - وفق هذا البيان - لا يعيش بمنأى عن مجتمعه، أو بمعزل عن القضايا الساخنة التي تنحت مجاري التغيير تحت سمعه وبصره، بل يمارس مهنته "من خلال الاتصال الدائم مع واقع اليوم"^(١٣)، كغلاء الأسعار، وورشات إصلاح التعليم، ويحلّل الأسباب البنوية للهشاشة والفقر، ويقدم آراءه في التنمية، وتطوير الإبداع والابتكار، ويناقش عشرات الأمة العربية وفلسطين وحرّب غزة، ومسألة الإرهاب، وغيرها من القضايا الشائكة في العالم المعاصر. كما يمكن أن يكون مشاركاً في الاحتجاجات

في الشارع والساحات العمومية، ليعري كافة أشكال الفساد والاستبداد. ويمكن كذلك أن يكون في الوقت ذاته نشيطاً من دعاة السلام، ومساهمياً في ترسيخ قيم حقوق الإنسان، متجاوزاً السؤال الإبتيمولوجي لمهنة المؤرّخ، والنزعة الأكاديمية الضيقة التي تجعل منه مجرد مدرّس لا تتجاوز أفكاره التلقينية أسوار المؤسسات العلمية التي يشتغل فيها، ليصبح مؤرّخاً «مناضلاً» يتحمل مسؤولياته، ويدخل بقوة في ساحة النقاش، ويدلي بدلوه، ويُسمع صوته دفاعاً عن الحرية والعدالة، وعن الحق والحقيقة.

بهذه المرجعية الأخلاقية، تتسع مسؤولية المؤرّخ في انسجام مع قضايا مجتمعه، يقتحم معركة الكرامة الإنسانية، ويجعل من إضاءاته التاريخية طاقات تعبيرية تنطق بالمبادئ والقيم الأصيلة التي تستنهض إنسانية الإنسان، وتجعله ينخرط في جبهة الوازع الأخلاقي، لاستثمار قدرات الروح الكامنة في أعماق البشرية، ومقاومة الظلم والتبعية والاستعباد الذي تخضّبهُ وتوسع رقعته الرأسمالية والعولمة المتوحشة، والسعي لتأسيس عالم عادل، واعد بالخير والفضيلة والعدالة الاجتماعية.

ومن دون هذا «الحراك الثقافي» الملزم، لا يكون المؤرّخ وفيّاً لحرفته، وبالتالي ماذا يبقى له من شرف هذه المهنة إذا لم يندمج مع أحداث زمنه، ويغطس في قعرها، وينبش في مشاكل الحياة اليومية، ويتفاعل معها

بعمق من أجل الفهم والإدراك، والتصدي والمقاومة لكل انحراف في القيم؟ كيف يبقى منشداً للماضي في زمن ألغت فيها الثورة الرقمية والتكنولوجية المسافة الزمنية بين الماضي والحاضر، وأصبح تاريخ الزمن الحاضر يتشكّل أمام أعين المجتمع؟. على المؤرّخ أن يقدم «مارك بلوك»، ليجعل من علم التاريخ علماً للتغيير^(١٤).

ويتصدر ترسيخ الوعي بالقضايا المصيرية للمجتمع، لائحة الحسابات التي على المؤرّخ أن يقدمها لقرائه حتى يصنّف في عداد المؤرّخ المحترف. فالمؤرّخ الذي يكتب الكثير من دون محاولة نشر الوعي بين مواطنيه، ومن دون أن تعبّر أفكاره إلى كل شعوب العالم، يفقر هو نفسه للوعي الاجتماعي، وتتعلّل آلية وعيه التاريخي، والحال أن «صناعة المؤرّخ هي مساهمة في رفع الوعي لا عند المؤرّخ، بل عند المواطن»، على حدّ تعبير المفكر عبد الله العروي^(١٥).

صحيح إن مهمة المؤرّخ تكمن في البحث عن الحقيقة في التاريخ ولو كانت نسبية، غير أن الحقيقة التاريخية لا تنفصل عن الحق وعن الحياة العامة، بل هي عبور لساحة الدفاع عن الحق. فإذا كانت الحقيقة غاية علم التاريخ، فإن المسؤولية الأخلاقية للمؤرّخ هي منتهاها^(١٦). وقديماً قال ابن قيم الجوزية متحدثاً عن النفس التي لا تلتزم

بالدفاع عن مبدأ الحق: "إن لم تشغلها بالحق، شغلتك بالباطل"^(١٧). وتؤكد هذه المقولة في نظري، دعوة للمثقفين - وضمنهم المؤرّخ - إلى خوض معركة القيم، والالتزام بقضايا الإنسانية والوطنية والمحلية انطلاقاً من ضمير أخلاقي.

قد يعترض معترض على أن التّاريخ لأحداث نعيش في قلبها، لا تسلم من الأهواء والانحياز والتموقع والاصطفاف إلى جهة على حساب جهة، مما يُبعد المؤرّخ عن الموضوعية التي تُعتبر حجر الزاوية في الكتابة التاريخية.

إلا أن هذا الانطباع مردود عليه، فالذاتية مهما حاولنا تجاوزها، تبقى مسألة نسبية، لأن المؤرّخ هو قبل كل شيء كائن بشري، مكوّن من لحم ودم وأحاسيس وهوية. وكلها عوامل تؤثر في قلمه. وقد سبق أن انتقد «جورج هانز غادامير» Gadamer في هذا الصدد المدرسة التاريخية الوضعانية، واعتراض على مطالبتها المؤرّخ بالتجرد من أهوائه وذاتيته. فالذاتية وفق بيان "غادامير" وإن لم تظهر في العلن، فإنها تظل تمارس فعلها في الخفاء، بدلاً من تمثيلها كموجّهات علنية في عملية الفهم والتحليل، فالأهواء هي التي تؤسس موقفنا الوجودي الراهن. كما أن دراسة التاريخ هي في نهاية المطاف عملية تأويلية تستحضر الذات شئنا أم أبينا، ولا تلزم المؤرّخ بالانسلاخ عن قضايا الحاضر^(١٨). ولتجنب استبداد الذاتية في

تأويل الأحداث التاريخية، فإنه يحرص على أن تكون عين المؤرّخ في أي عملية تأويل موجهة نحو «الشيء نفسه»، لكي يدرکه «شخصياً»، علماً أن الإدراك هو الذي يساعد على قراءة التاريخ بمقاربة سليمة نسبياً^(١٩).

وعلى نفس المنوال، أكد بول ريكور «Paul Ricœur» نسبية الموضوعية في العلوم الإنسانية والاجتماعية، وبيّن بقدر كبير من بُعد النظر، أن ذاتية المؤرّخ تتدخل (قصداً أو بغير قصد) في جميع مراحل الكتابة التاريخية. ويتحدّى في نقده للموضوعية التي تزعمها المدارس التاريخية الوضعانية إلى وقوع هذه الأخيرة نفسها في فخّ الذاتية، من خلال إشارته إلى بعض السمات التي تبرز البُعد الذاتي في منهجية روادها. ففكرة الاختيار (اختيار موضوع البحث أو الكتاب)، وحكم الأهمية Jugement d'importance الذي يحكم هذا الاختيار، وتنوع معايير الانتقاء تبعاً لنظرية أو لفرضية العمل التي يتبناها المؤرّخ، كلها موجّهات تتجلى فيها ذاتية المؤرّخ، تحت عناوين مختلفة، تعمل خلف الستار، في أفق ما يسميه بـ "التخطيطات السردية"^(٢٠).

وإذا تجاوزنا إشكالية الموضوعية ونسبيتها، تبرز الحاجة الماسة لمؤرّخ الحاضر الذي يساهم في إيجاد حلول لبناء مستقبل البشرية. فالفاحص للمشهد العام المتوتر

التكنولوجية، والقفزة التي حصلت في مسار التطور المعرفي، وانفتاح التاريخ على العلوم الاجتماعية والإنسانية، وتغير البنية الزمنية للتحقيب التاريخي التقليدي بفضل هذه التحولات، لم يعد الشك يحوم حول أهمية التاريخ للحاضر، بل حصل على اعتراف جماعي بأنه (تاريخ مثل التواريخ الأخرى)^(٢٢)، مما جعل الباحثين يتحدثون عن شرعية ما أسماه «فرانسوا هارتوغ» بالحاضرانية Le présentisme^(٢٣).

ومن خلال متابعة أحداث ووقائع التاريخ الحاضر، اتضح جلياً أنها توفر للمؤرخ ما لا توفره له الثروة الأرشيفية في الحقب التاريخية الأخرى. وحسبنا أنها مكنته من الاحتكاك المباشر بمصادر جديدة فجّرتها الثورة الرقمية من قبيل وثائق ويكيليكس ووثائق باناما. ناهيك عما تتيحه الاتصالات الرقمية مع مكتبات وخزانات العالم من إمكانيات هائلة لإغناء رصيد مادته التاريخية. كما أتاحت له إمكانية الاتصال المباشر بالشهود الذين لا يزالون على قيد الحياة، فضلاً عن الوسائط الرقمية المتطورة، وشرائط اليوتيوب والفيديوهات، ومدونات منصات التواصل الاجتماعي، مما يُشكل تربة خصبة لمؤرخ التاريخ الراهن.

المخيّم على عالم اليوم، يُلاحظ أن المشكلات السياسية التي تعكّر صفو العلاقات بين الدول، أو بين المكونات العرقية والمذهبية للمجتمع الواحد، وما يتمخض عنها من حروب أهلية، يعزى معظمها إلى أسباب تاريخية. ألا يدل النزاع الحالي بين روسيا وأوكرانيا، والصراع العربي - الإسرائيلي، وخلاف الصحراء بين المغرب والجزائر، وغيرها من خرائط الصراعات السياسية والعسكرية التي تنذر بعواقب كارثية على المجتمع الدولي أنها ذات جذور تاريخية تتطلب إسهام المؤرخ، لصياغة مستقبل أفضل بين الدول أو الأطراف المتنازعة، وإرجاع الحق المشروع لأصحابه من دون خوض للحروب؟.

وعندما يتأمل الدارس التوترات العرقية والمذهبية داخل المجتمعات العربية - الإسلامية الواحدة، يجد أن منطلقاتها تاريخية أيضاً^(٢٤)، نفخ فيها الاستعمار وزاد في وقودها؛ ومن ثم يبدو أن المؤرخ يبقى مؤهلاً لتفسير وشرح أسبابها، وتقديم المقترحات والتوصيفات لحل هذه الإشكاليات الخطيرة التي تعصف بمجتمعاتنا انطلاقاً من مبدأ الحق والواجب الأخلاقي، بعيداً عن أي تحيز أو اصطفاف سياسي، مهما كان تحليله يعاكس هواه.

وفي الزمن الراهن، ومنذ سقوط جدار برلين في أواخر ثمانينيات وبداية تسعينيات القرن الماضي، واكتساح الثورة

ثالثاً: على مستوى المقاربة التراثية:

تجربة المنجز العربي - الإسلامي في رؤية الماضي والحاضر واستبصار المستقبل

على المستوى الثالث من تفاعل المؤرخ مع قضايا الساعة، فإن من أبرز الأسئلة التي تثار في حقل الدراسات التاريخية، سؤال ما إذا كان التاريخ الحاضر أو التاريخ الآني الذي يجري أمام أعيننا، واستشراف المؤرخ للتغيرات المستقبلية الممكنة، مسألة ثقافية أفرزتها الحداثة الفكرية، وتطور الرؤى المنهجية المعاصرة في مجال الكتابة التاريخية، أم هو جزء من التراث الإسلامي، ووجد بشكل أو بآخر عند المؤرخين المسلمين في العصر الوسيط؟

إن تأصيل معاشة المؤرخ للأحداث التاريخية، وتدوين الوقائع التي شاهدها، واستشرافه للمستقبل، يؤكد صحة الفرضية الثانية. فبالرجوع إلى الإسطوغرافيا القديمة والوسطية، يتضح أن فكرة التأريخ للحاضر ليس بدعة أو بضاعة مُستحدثة في الزمن الراهن، بل سبق أن أثارها بعض المؤرخين القدامى من أمثال المؤرخ اليوناني هيرودوت، والمؤرخون العرب من طينة المسعودي والطبري، وابن خلدون، وابن حيان، وابن الخطيب، وغيرهم ممن عاشوا في قلب الوقائع والأحداث الكبرى، فأرخوا تاريخاً حاضرياً لعصرهم، وفهموا زمنهم فهماً شمولياً بمعاشته والتفاعل مع وقائعه، والتعبير عن مواقفهم وردود

أفعالهم، فاستطاعوا أن يتحسسوا منعرجاته وتموجاته. وغدوا بتلك الصفة شهود عيان على زمنهم، وترجموا ما في داخل وجدانهم وأحاسيسهم وملاحظاتهم وانطباعاتهم ما أغنوا به المادة التاريخية، فأفاضوا في تزويدنا بالنصوص والروايات المعاصرة والوثائق المباشرة.

وفي ذات الاتجاه، يمكن القول أيضاً أن المؤرخين الذين كتبوا حول مناقب الملوك والسلاطين وسيرهم، ساهموا بطريقة مباشرة أو غير مباشرة في التأريخ لعصرهم، وهو ما يعكسه نموذج المؤرخ محمد بن مرزوق التلمساني (ت ٧٨١هـ / ١٣٧٩م) الذي كتب بإسهاب وبتفاصيل دقيقة سيرة السلطان أبي الحسن المريني (ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م)، فكان شاهد عيان على عصره، وقدم معلومات دقيقة حول مرحلة حكمه، جعلته يفتخر بأنه أحد المتخصصين البارزين ممن كتبوا حول عصر السلطان المذكور، وهو ما يستشف من قوله: "وخبرت من سيره الجميلة وخصاله الكريمة وشاهدت من شيمه العظيمة ما أعتقد أنني اقتصت في عصره بمعرفته" (٢٤).

صحيح أن متن كتابه عبارة عن سردية فردية مناقبية، تتمحور حول شخصية السلطان المذكور؛ غير أن الكتابة في مناقب الحاكم تعتبر أيضاً تاريخاً لزمانه ومجتمعه، أو جزء منه على الأقل. ولا غرو فقد خصص

الباب العاشر لذكر ملاحظات أبي الحسن حول رعيته، خاصة ما كان يُعرض عليه من شكايات الناس بسبب ما تعرضوا له من ظلم وإجحاف. ولم تخل الأبواب الأخرى أيضاً من التأريخ للعلم والعلماء، والصلحاء والزوايا، والبدع والمنكرات، ونظم الإدارة المغربية، والمعالم العمرانية والطرق، والمؤسسات التعليمية التي ساهم في بنائها السلطان المريني.

ولعل ما يلفت الانتباه في هذا الكتاب، هو تعبير ابن مرزوق عن حسرته لعدم تزامن كتابه مع اللحظة التي عايش فيها سلطانه، لأنه ألفه عام ٧٧٢هـ/ ١٣٧١م^(٢٥)، أي بعد ٢٣ سنة من وفاة أبي الحسن المريني، بسبب الغربة والظروف القاسية التي عاشها بعيداً عن بلده^(٢٦). ومع ذلك أعاد تشغيل ذاكرته القريبة التي كانت لا تزال في ذروة نشاطها إبان حكم السلطان المريني أبو فارس عبد العزيز (ت ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م)، مما جعل الأخبار والمعطيات التي أوردتها حول عهد أبي الحسن المريني تحتفظ بأصالتها وطرواتها، قبل أن تتداولها أقلام المؤرخين اللاحقين. ولذلك يمكن اعتبار ابن مرزوق مؤرخاً لعصره ومجتمعه.

وفي سياق هذه المرافعة التراثية عن اهتمام المؤرخين المسلمين في العصر الوسيط وتفاعلهم مع أحداث عصرهم، نستحضر دعوة المؤرخ المسعودي للمؤرخين، بمباشرة تحرياتهم الخاصة بجمع المعلومات

التاريخية، عن طريق التنقل إلى مكان الواقعة، ومباشرة البحث الميداني. ففي مقدمته كتابه "مروج الذهب"، يشرح دوافع تأليفه، فيذكر أنه كان يحرص على سد الثغرات التي أهملها المؤرخون الذين سبقوه، والهفوات التي وقعوا فيها، بسبب عدم معاينتهم الميدانية للوقائع، والاقتصار على سماع الخبر، دون الرحلة إلى عين المكان للثبوت، والتأكد من صحة الواقعة. يقول في هذا الصدد: "وليس من لزم جهة وطنه وقنع بما نمي اليه من الأخبار عن إقليمه، كمن قسّم عمره على قطع الأقطار، ووزّع أيامه بين تقاذف الأسفار، واستخراج كل دقيق من معدنه، وإثارة كل نفيس من مكمنه"^(٢٧). وانطلاقاً من هذا التوجه، أشاد بعدد من المؤرخين الذين اعتمدوا على المعاينة الميدانية كمصدر للخبر، وخاصة ابن خرداذبة عبيد الله بن عبد الله الذي جمع بين الرحلة وتقصي الأخبار، وذلك في كتابه الكبير في التاريخ الذي اعتبره «أجمع هذه الكتب جداً، وأبرعها نظماً، وأكثرها علماً»^(٢٨).

كما نستحضر بصدد هذا التشابك الزمني بين الماضي والحاضر، التنبيه الذي قدمه ابن خلدون للمؤرخين، حول ضرورة معرفة واستيعاب أخبار الماضي والحاضر معاً، وامتلاك ناصية الزمنين معاً، حتى لا يسقطوا في فخ الأخطاء التاريخية بسبب قياس الحاضر على الماضي. ويورد

الماضين وحوادث المتقدمين»^(٣٠).

وفي المنحى ذاته، يُميز ابن خلدون بين صنفين من المؤرخين: صنف أطنب في سرديات أحداث الماضي، ولكنه أهمل وقائع التاريخ الذي عاصره، وصنف ثانٍ عُنِي إلى جانب تدوين تاريخ الأمم والحضارات، بتدوين وقائع التاريخ الحاضر لبلده، فـ: «قيد شوارد عصره، واستوعب أخبار أفقه وقطره»، وذكر من بينهم ابن حيان مؤرِّخ الأندلس، وابن الرقق القيرواني مؤرِّخ إفريقية (تونس)^(٣١).

من جهةٍ أخرى، فإن الفاحص لإنتاجات مؤرِّخي العالم الإسلامي في العصر الوسيط، يلحظ أن سقف اهتمامهم لم يتوقف عند حدِّ التفاعل مع وقائع التاريخ الحاضر لمُجتمعاتهم والربط بين الحاضر والماضي فحسب، بل ساهموا في استشعار تحولات عصرهم، وتنبأوا ببعض التغيرات التي كانت قد بدأت تنحت نفسها في صخرة التاريخ العالمي، وما رافق ذلك من تبدلات في الفكر والاقتصاد والسياسة.

يمكن وضع الإصبع على هذه الاستشعارات والاستباقات التي كان المؤرِّخون يتنبهون لها، عند قُرب حدوث تحولات وانعطافات تاريخية للدول والمُجتمعات، من خلال رصدتهم ومراقبتهم لما تحدّثه التحركات السكانية والهجرات البشرية الكبيرة، والكوارث والأوبئة والأمراض من تغيرات

في هذا الصدد مثلاً حول خطورة الفصل بين الزمنين، يقول فيه: «فربما يسمع السامع كثيراً من أخبار الماضين، ولا يتفطن لما وقع من تغير الأحوال وانقلابها، فيُجريها لأول وهلة على ما عرف، وقيسها بما شهد. وقد يكون الفرق بينهما كثيراً، فيقع في مهواه من الغلط. فمن هذا الباب ما ينقله المؤرِّخون من أحوال الحجاج وأن أباه كان من المعلمين، مع أن التعليم لهذا العهد من جملة الصنائع المعاشية البعيدة من اعتزاز أهل العصبية، والمعلم مستضعف مسكين منقطع الجذم... والحجاج بن يوسف كان أبوه من سادات ثقيف وأشرافهم، ومكانهم من عصبية العرب ومناهضة قريش في الشرف ما علمت، ولم يكن تعليمه للقرآن على ما هو عليه الأمر عليه لهذا العهد من أنه حرفة للمعاش»^(٣٢). ولا شك أن هذا النص المقارن يكشف عن التشابك والترابط الوثيق بين الماضي والحاضر، وأن معرفة الماضي لا تكتسب بمعزل عن الحاضر.

وعلى نفس المنوال، يبرر ابن الأثير ضرورة عيش المؤرِّخ داخل فضاء زمني الماضي والحاضر للمقارنة والمقايسة، متحججاً بنزعة البشر إلى الخلود في الحياة. فـ: «الإنسان لا يخفى أنه يحب البقاء، ويؤثر في أن يكون في زمرة الأحياء، فيا ليت شعري أي فرق بين ما رآه أمس، أو سمعه، وبين ما قرأه في الكتب المتضمنة أخبار

وانقلابات، يتمخض عنها قيام دول وحضارات وسقوط أخرى.

لقد استشعر المؤرّخون المسلمون في العصر الوسيط، دور تعاقب أزمنة الرخاء والجفاف، في حركةٍ دورية، اهتمدوا من خلالها إلى بعض قواعد التغيير المجتمعي كالانهيار الاقتصادي، وفراغ بيت المال، وضعف الجند، وانكسار شوكة العصبية القبلية.

وبالمثل، تنبأوا بانعكاسات انتقال الدولة من طور البداوة إلى طور الحضارة، وارتباط قيام الدول أو سقوطها بسقوط المرجعية الأخلاقية الإصلاحية التي تأسست عليها، وهو ما يسميه ابن خلدون بالترف وانغماس السلطة الحاكمة في الملذات المؤدية إلى التفسخ والانحلال^(٣٢). كما تنبأوا بتأثير الأوبئة والطواعين وفعاليتها في سقوط الحضارات، ورأوا فيها لحظةً فارقةً في تاريخ المجتمعات، وعلاماتٍ كبرى على نهاية عصر قديم وبداية عصر جديد. وفي هذا الصدد، كتب ابن خلدون متنبئاً بالتحول الكبير الذي عرفه تاريخ البشرية في القرن ٨هـ/ ١٤م جراء هول وباء الطاعون الذي سمّاه بالجارف في عبارات مركزة ذات مغزى عميق، ينطق بتغيّر المشهد التاريخي، واندثار حقبة وبداية حقبة أخرى بالقول: «... وإذا تبدلت الأحوال جملة، فكأنما تبدل الخلق من أصله، وتحول العالم بأسره، وكأنه خلق جديد ونشأة مستأنفة وعالم محدث،

فاحتاج لهذا العهد من يدوّن أحوال الخليفة والآفاق وأجبالها والعوائد والنحل التي تبدلت لأهلها»^(٣٣).

وبالمثل، ارتكز بعض المؤرّخين المسلمين على معطيات الظرفية العامة للدول الإسلامية، والمتغيرات الدولية، وتبدّل موازين القوى العالمية على فكرتي «التقدم» و «التخلف»، فتنبأوا - بفضل ما امتلكوه من سعة الاطلاع، وتوقّد الذهن، وسرعة البديهة - ببواكير النهضة الأوروبية، وتجاوز الغرب الأوروبي المسيحي العالم الإسلامي حضارياً في أفق القرن ٨هـ/ ١٤م، نتيجة ما أبدعوه من علوم وابتكاراتٍ وتحولاتٍ فكرية أفرزت ميلاد حقبة النهضة الأوروبية، وتمدد الاكتشافات الجغرافية في أنحاء العالم، وبداية شيوع العقلانية الأوروبية، وتسارع عقارب الفكر الحر، وانتشار التجارة الماركنتيلية التي ستمخض عنها الرأسمالية فيما بعد.

ويخيّل إلينا أن هذا هو عين ما استشرفه ابن خلدون حين رسم ملامح هذا التجاوز الثقافي والحضاري الذي عايشه وهو ينحت مشاهده الأولى في الغرب الأوروبي المسيحي، بالقول: «كذلك بلغنا لهذا العهد أن هذه العلوم الفلسفية ببلاد الإفرنجية من أرض رومه وما إليها من العدو الشمالية نافقة الأسواق، وأن رسومها هناك متجددة، ومجالس تعليمها متعددة، ودواوينها جامعة متوفرة، وطلبتها متكثرة، والله أعلم بما

هنالك، وهو يخلق ما شاء ويختار»^(٣٤).

وتصرفات عاقلة ومنطقية لسلامة اختياراته المستقبلية. يقول في هذا الصدد: «ومنها ما يحصل للإنسان من التجارب والمعرفة بالحوادث، وما تصير إليه عواقبها، فإنه لا يحدث أمر إلا قد تقدم هو أو نظيره فيزداد بذلك عقلاً»^(٣٦).

وفي نفس المنحى، يرد عند ابن خلدون ما يؤكد منظوره للتاريخ كصنف معرفي تكمن وظيفته لا في إدراك الماضي فحسب، بل كذلك في تنوير مستقبل الأجيال القادمة؛ وحسبنا ما نبّه إليه بخصوص الفوائد العلمية التي يقدمها لقارئ كتابه بالقول: «...حتّى تنزع من التقليد يدك، وتقف على أحوال ما قبلك من الأيام والأجيال، وما بعدك»^(٣٧). ونميل إلى ترجيح أن تعبير «ما بعدك» الوارد في هذا النص، يحيل على أن علم التاريخ لا يقتصر على الماضي فحسب، بل يتضمن وظيفة معرفية لاستشراف المستقبل.

كما تنبأ المؤرّخ ذاته بانعكاسات الاستلاب الثقافي والانقياد لحضارة الغالب وتأثيره في ذوبان هوية المغلوب، وذلك عند متابعته مسألة تأثر الأندلسيين في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي، بمن جاورهم من شعوب الممالك الإسبانية النصرانية، ومحاولاتهم التشبّه بهم في الملبس، والمأكل والمشرب، ووسائل الترفيه، وفي أنماط الحياة والعادات الاجتماعية، فعَدَّ ذلك مؤشراً على الاستلاب الثقافي الذي يؤدي إلى انمحاء هوية وحضارة المتشبّه بالغير. كما استشرّف بحكمته وتبصّره بأن انبهار المغلوب بحضارة الغالب، يُفضي إلى انصهاره وذوبانه في حضارته، بل يؤدي إلى الاضمحلال السياسي للمجتمع المغلوب، ووقوعه تحت نير الاحتلال أو «الاستيلاء» حسب تعبيره، وهو ما اختصره بالقول: «حتّى لقد يستشعر من ذلك الناظر بعين الحكمة أنه من علامات الاستيلاء، والأمر لله»^(٣٥).

وُترجح أيضاً أن المؤرّخين المسلمين في العصر الوسيط اهتموا بالدور الذي يلعبه التاريخ في إيقاظ وعي الإنسان بالمستقبل، وهو ما نستشفه من مقولة ابن الأثير حول «الدرس» الذي يقدمه التاريخ للحاكم، لاتخاذ القرار الصحيح. ولا غرو فقد عدَّ «عبرة» التاريخ بوصلة لقراءة المستقبل، واتخاذ ما يراه المرء صائباً، من قرارات

خلاصة وتوصيات

أثارت هذه الورقة البحثية سؤال موقف المؤرّخ من قضايا الساعة التي تشغل بال الرأي العام، وبناء تصورات لتوقعات المستقبل من خلال ثلاث مقاربات: أكاديمية وأخلاقية وتراثية. ورافعت عن فرضية عدم انزواء المؤرّخ، واكتفائه بالالتفات إلى الوراء فحسب. ومقابل ذلك، رأت أن المؤرّخ الناجح هو الذي يُبحر بين مرفأَي الماضي بكل دروبه الباهتة الإضاءة، ومعطيات الحاضر بكل تعقيداته والتباساته، ويؤصل ويفسّر مشاكل المجتمع والقضايا الراهنة بالبنى العميقة الممتدة في التاريخ. كما توصلت إلى أن المؤرّخ المحترف هو الذي يدلي بدلوه في قضايا الحاضر، لتحليل الأزمات الاقتصادية ويشارك في صناعة القرار السياسي، ويساهم بخبرته في ابتكار الحلول، واستشعار اتجاه عقارب الأحداث في المنظور القريب والبعيد، بمراقبتها وتتبعها عن كثب، ليقدم تصوراً للمستقبل. وبهذا المنظور الفكري التفاعلي مع قضايا المجتمع، يتحوّل التاريخ عنده إلى وحدة زمنية بأبعادها الثلاثة: الماضي والحاضر والمستقبل، فيصبح خادماً لحاجات المجتمع الذي يعيش تحت سقفه، ومشاركاً في بناء تصورات معرفية تخدم تطور البشرية.

ومن الخلاصات الأساسية للأفكار التي عرضت لها هذه الورقة كذلك، أن مهمة المؤرّخ مزدوجة، فإلى جانب شقّها الأكاديمي، فهي أيضاً معركة قيم تتوخى الانتصار للحقيقة والحق، ومناهضة كافة

أشكال الفساد والاستبداد، والمطبّات المعيقة لهيضة المجتمعات، بعيداً عن أي تحيز أو اصطفاف سياسي، مهما كان تحليله يعاكس هواه، وذلك من أجل ترسيخ مبادئ أخلاقية تصون مهنته، وترفع من منسوب مصداقية كتاباته، وتجعله ينتقل من موقع المؤرّخ المتفرج على الأحداث من برجه العاجي، إلى فاعل ومتفاعل مع قضايا مجتمعه.

وأختم هذه الورقة بثلاث توصيات:

تحفيز الباحثين على الاهتمام بالتاريخ الراهن، ومناقشة قضايا الساعة: اقتصادية واجتماعية وسياسية وفكرية، ودراستها، وتدوينها وحفظها كوثائق لذاكرة الأجيال القادمة.

تأسيس مراكز تفكير، ومعاهد علمية، تهتم بقضايا الساعة واستشراف المستقبل، يكون فيها للمؤرّخين حضوراً وازناً، لاستثمار خبراتهم وكفاءة تحليلاتهم، والعمل على تطوير المشاريع ونشر نتائج الدراسات والأبحاث.

إنجاز ميثاق أخلاقي يتضمن التزام المؤرّخ بقضايا مجتمعه، وعدم الانعزال عن هموم وطنه، والمساهمة بخبرته في حلّ المشاكل التي تعصف بالعالم وبالإنسانية. وتحليلها بمرجعية تاريخية للوقوف على جذور بنياتها العميقة، وفهم تشكلاتها، تمهيداً لإيجاد حلول ناجعة لها من قبل القادة والمسؤولين.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: باللغة العربية

المصادر

١. ابن الأثير، أبو الحسن عز الدين، (ت في شعبان عام ٦٣٠هـ/ ١٢٣٣م)، الكامل في التاريخ، دار الفكر، بيروت (دون تاريخ)، المجلد ١.
٢. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، (ت في رمضان عام ٨٠٨هـ/ ١٤٠٦م)، كتاب المقدمة، ط ٣، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (دون تاريخ).
٣. ابن القيم الجوزية، (ت في رجب عام ٧٥١هـ/ ١٣٥٠م)، الوابل الصيب من الكلم الطيب، تحقيق سيد إبراهيم، دار الحديث، القاهرة، ١٩٩٩.
٤. ابن مرزوق، محمد بن أحمد التلمساني، (ت في رجب عام ٧٨١هـ/ ١٣٧٩م)، المسند الصحيح الحسن، في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، دراسة وتحقيق: مارية خيسوس بيغيرا، تقديم: محمود بوعياذ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٨١.
٥. المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين، (ت عام ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط ٤، مطبعة السعادة، مصر، ١٩٦٤، الجزء الأول.

المراجع

١. البخاري حمّانة، «من أجل فلسفة عربية للتاريخ»، نشر في كتاب الفلسفة العربية المعاصرة، ط ١، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٨.
٢. بوتشيش، إبراهيم القادري، «الربيع العربي حلقة جديدة في التحقيب التاريخي: الارهاصات التأسيسية لكتابة تاريخ غير مدوّن»، نشر في كتاب: التاريخ العربي وتاريخ العرب كيف كُتب وكيف يُكتب؟ الاجابات الممكنة، منشورات المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، ٢٠١٧.
٣. بلوك، مارك، دفاعاً عن التاريخ أو مهنة المؤرّخ، تقديم: جيرار نواريل وجاك لوجوف، ترجمة وتقديم: أحمد الشيخ، ط ٢، منشورات المركز العربي - الإسلامي للدراسات الغربية، القاهرة، ٢٠١٣.
٤. بلوك، مارك، الهزيمة الغربية.. شهادة نظمت في عام ١٩٤٠، ترجمة: عومرية سعيد سلطاني، منشورات المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، سلسلة ترجمان، بيروت، ٢٠٢١.
٥. البكر، خالد عبد الكريم، «المؤرّخ لا يلتفت إلى السوراء دائماً»، قد يتشوف إلى المستقبل أحياناً»، مقال منشور في مجلة الفيصل، بتاريخ ١ سبتمبر ٢٠١٩،

محمد علي للنشر، ط ١، صفاقس -
تونس، ٢٠١٢.

ثانياً: باللغات الأجنبية

1. Bloch, Marc, Apologie pour l'histoire ou métier d'historien, Arman Colin, Paris 1993.
2. Gadamer, Hans- Georg, Vérité et méthode, les grands lignes d'une herméneutique philosophique, Paris- Aubier 1982.
3. Hartog, François, Régimes d'historicité, présentisme et expériences du temps, Paris, Seuil 2003,
4. Prost, Antoine, « L'histoire du temps présent : une histoire comme les autres », *Bilan et perspectives de l'histoire immédiate*, dossier du no 30-31 de *Cahiers d'histoire immédiate*, 2006-2007, p 21-28.
5. Valéry, Paul, Regards sur le monde actuel, Gallimard, collection "Idées", Paris 1945.

شوهديوم ١٤ يونيو ٢٠٢٢ بالموقع الإلكتروني:

<https://www.alfaisalmag.com/?p=16597>

٦. درويش، حسام الدين، إشكالية المنهج في هيرمينوطيقا بول ريكور وعلاقتها بالعلوم الإنسانية والاجتماعية: نحو تأسيس هيرمينوطيقا للحوار، ط ١، منشورات المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، ٢٠١٦.
٧. العروي، عبد الله، مفهوم التاريخ: ج ١: الألفاظ والمذاهب، ط ١، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء / بيروت، ١٩٩٢.
٨. فرو، قيس ماضي، المعرفة التاريخية في الغرب، مقاربات فلسفية وعلمية وأدبية، ط ١، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، ٢٠١٣.
٩. كوثراني، وجيه، تأريخ التاريخ: اتجاهات - مدارس - مناهج، ط ١، منشورات المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة / بيروت، ٢٠١٢.
١٠. ليسير، فتحي، تاريخ الزمن الراهن: عندما يطرق المؤرخ باب الحاضر، منشورات جامعة صفاقس، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، دار

الهوامش

١١. بوتشيش، إبراهيم القادري، "الربيع العربي حلقة جديدة في التحقيب التاريخي: الارهاصات التأسيسية لكتابة تاريخ غير مدوّن"، نشر في كتاب: التاريخ العربي وتاريخ العرب كيف كتب وكيف يكتب؟ الاجابات الممكنة، منشورات المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، ٢٠١٧، ص ١٣٩-١٤٠.

١٢. بلوك، دفاعاً... م. س، ص ٥٨.

١٣. المرجع نفسه، ص ٦٩.

14. Bloch, Marc, Apologie pour l'Histoire ou métier d'Historien, Arman Colin, Paris 1993, p.24.

١٥. العروي، عبد الله، مفهوم التاريخ: ج ١: الألفاظ والمذاهب، ط ١، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء/ بيروت، ١٩٩٢، ص ٢٤.

16. Bloch, op.cit., p.28.

١٧. ابن قيم الجوزية، الوابل الصيب من الكلم الطيب، تحقيق سيد إبراهيم، دار الحديث، القاهرة، ١٩٩٩، ص ٨٢.

18. Gadamer, Hans- Georg, Vérité et méthode, les grands lignes d'une herméneutique philosophique, Paris- Aubier 1982, p.303.

١٩. (فرو، قيس ماضي، المعرفة التاريخية في الغرب، مقاربات فلسفية وعلمية وأدبية، ط ١، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، ٢٠١٣، ص ٥٧.

٢٠. درويش، حسام الدين، إشكالية المنهج في هيرمينوطيقا بول ريكور وعلاقتها بالعلوم الإنسانية والاجتماعية: نحو تأسيس هيرمينوطيقا للحوار، ط ١، منشورات المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، ٢٠١٦، ص ٣٨٠.

٢١. البكر، خالد عبد الكريم، "المؤرّخ لا يلتفت إلى الوراء دائماً، قد يتشوف إلى المستقبل أحياناً"، مقال منشور في مجلة الفيصل، بتاريخ ١ سبتمبر ٢٠١٩، شوهد يوم ١٤ يونيه بالموقع الإلكتروني:

<https://www.alfaisalmag.com/?p=16597>

١. ((أنظر المزيد من التفاصيل حول المدرسة الوضعية عند: كوثراني، وجيه، تأريخ التاريخ: اتجاهات- مدارس- مناهج، ط ١، منشورات المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة/بيروت، ٢٠١٢، ص ١٦٥-١٦٩.

٢. المرجع نفسه، ص ١٦٩.

٣. المرجع نفسه، ص ٢٠٩.

٤. البخاري، حنّانة، "من أجل فلسفة عربية للتاريخ"، نشر في كتاب الفلسفة العربية المعاصرة، ط ١، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٨م، ص ٢٤١-٢٤٣.

٥. بلوك، مارك، دفاعاً عن التاريخ أو مهنة المؤرّخ، تقديم: جيرار نواريل وجاك لوجوف، ترجمة وتقديم: أحمد الشيخ، ط ٢، منشورات المركز العربي - الإسلامي للدراسات الغربية، القاهرة، ٢٠١٣، ص ١١٢.

٦. أنظر: موقع radiofrance "راديو فرنسا"، شوهد بتاريخ ١٧ يونيه ٢٠٢٣ في الموقع الإلكتروني:

<https://www-radiofrance-fr/franceculture/podcasts/les-lundis-de-l-histoire>

٧. ليسير، فتحي، تاريخ الزمن الراهن: عندما يطرق المؤرّخ باب الحاضر، منشورات جامعة صفاقس، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، دار محمد علي للنشر، ط ١، صفاقس- تونس، ٢٠١٢، ص ٩٥.

٨. ترجم هذا الكتاب للغة العربية من طرف الباحثة عومرية سعيد سلطاني بعنوان: الهزيمة الغربية، شهادة نظمت في عام ١٩٤٠، منشورات المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، سلسلة ترجمان، بيروت، ٢٠٢١.

9. Valéry, Paul, Regards sur le monde actuel, Gallimard, collection "Idées", Paris 1945, p.35.

١٠. تقديم جاك لوجوف لكتاب مارك بلوك: دفاعاً عن التاريخ أو مهنة المؤرّخ، ترجمة: أحمد الشيخ، ط ٢، المركز العربي للدراسات الغربية، ٢٠١٣، ص ٦٩.

22. Prost, Antoine, « L'histoire du temps présent : une histoire comme les autres », *Bilan et perspectives de l'histoire immédiate*, dossier du no 30-31 de *Cahiers d'histoire immédiate*, 2006-2007, p.21-28.
23. Hartog, François, *Régimes d'historicité, présentisme et expériences du temps*, Paris, Seuil 2003, p.55.

مرجع مذكور عند: ليسير، مرجع سابق، ص ٢٩.

٢٤. ابن مرزوق، مُحَمَّد التلمساني، المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، دراسة وتحقيق: مارية خيسوس بيغرا، تقديم محمود بوعياد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٨١، ص ٩٢.

٢٥. أنظر مقدمة محقق كتاب المسند الصحيح لابن مرزوق، ص ٦٥.

٢٦. المصدر نفسه، ص ٩٢-٩٣.

٢٧. المسعودي، مروج الذهب، ومعادن الجوهر، تحقيق: مُحَمَّد محيي الدين عبد الحميد، ط ٤، مطبعة السعادة، مصر، ١٩٦٤، ج ١، ص ١٢.

٢٨. المصدر نفسه، ص ١٤.

٢٩. ابن خلدون، عبد الرحمن، كتاب المقدمة، ط ٣، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (دون تاريخ)، ص ٢٩-٣٠.

٣٠. ابن الاثير، الكامل في التاريخ، دار الفكر، بيروت (د.ت)، المجلد ١، ص ٧.

٣١. ابن خلدون، مصدر سابق، ص ٥.

٣٢. ابن خلدون، مصدر سابق، ص ١٦٩.

٣٣. المصدر نفسه، ص ٣٣.

٣٤. المصدر نفسه، ص ٤٨١.

٣٥. المصدر نفسه، ص ١٤٧.

٣٦. ابن الأثير، المصدر السابق، ص ٨.

٣٧. ابن خلدون، المصدر السابق، ص ٦.

The Historian's Position On Current Issues and Anticipating the Future

Prof. Ibrahim Al-Qadri Bouchich Phd.

Honorary Professor at Moulay Ismail University in Meknes, Morocco

Abstract

This research deals with the historian's attitude on the current issues that concern public opinion, and how he can anticipate the transformations that may occur in the future, according to his historical experience.

The study tried to answer these questions, through three approaches: academic, ethical, and heritage. Based on the principle of the non-isolation of the historian, the research defends the idea that the historian does not just study only the past, he also navigates between the past, the present, and the future, to understand the problems of his society, and its current issues, and interpret them by referring to their historical causes.

Among the fundamental conclusions and ideas discussed in this research, it turned out that the historian's job is twofold. Besides its academic aspect, it is also a battle of values that aims to clarify the truth and achieve rights and justice by confronting all forms of corruption and tyranny and discovering historical factors that prevent the Renaissance of societies and the establishment of ethical principles.